الضياء
بهرا
العدد ٥٠١ - الاحد ٢٣ آب ٢٠٠٩ م - ٦٧٥٩ آ

حقوق شعبنا بين رؤية وفكر زوعا والضرورة التاريخية *

الحلقة الثانية

هرمز طيرو

مفهوم الحركة للأمن القومي:

سيبقى السؤال الأساسي يدور دائما حول: هل أمننا القومي مخترق أم لا، المعطيات والتحاليل والقراءات الواقعية تقول بأن أمننا القومي مخترق، عليه يجب أن نحدد لشعبنا وأمتنا الأهداف المحورية للأمن القومي، مع تحديد التحديات الأستراتيجية الأساسية التي يواجهها أمننا القومي، وأدناه أهم هذه التحديات:

اولا: تدخل جهات خارجية وهيمنتها على القرار السياسي داخل بعض من مؤسسات وتنظيمات وصفوف شعبنا وعلى الشكل التالي:

أ – في العقدين السابع والثامن من القرن العشرين الماضي، اوجد حزب البعث العربي الأشتراكي في العراق موطىء قدم مع اختراق واضح لجدارنا القومي من خلال بعض من مؤسساتنا الأجتماعية والعائلية كنادي ستحاريب العائلي – نادي الأثوري العائلي – وغيرها من الاندية التي شجع على تأسيسها وكل منها خاص بقرية وعشيرة او منطقة ليزيد الفرقة والتباعد.. الخ ومؤسسات دينية وسياسية 'مجلس الطائفة الاثورية – حزب الاثوري الديمقراطي' وغيرها، فضلا عن نفوذه وتدخله في امور الكنائس، وهذه سياسة قديمة جديدة ومستمرة ومطبقة الآن في وضع بعض من رجال الدين في الواجهة ودعمهم ماليا وأبراز دورهم سياسيا.

ب – نتيجة المشاركة المكثفة لأبناء شعبنا في مساندة الحركة الكردية وفي الحزب الشيوعي العراقي المتحالف معها، لعب الحزب الديمقراطي الكردستاني دوراً كبيراً في تدخله في شؤون شعبنا كتأسيسه للجنة العليا لشؤون المسيحيين في السبعينات، ودعمه في الثمانينات جماعات اخرى مثل التجمع الديمقراطي الذي تحول الى الاتحاد الديمقراطي الاثوري، وبعد الأنتفاضة ومن ثم بعد سقوط النظام السابق دعم ظهور عدد كبير جداً من احزاب وجمعيات بعناوين – ثقافة – اعلام – فضائية – لجنة تنسيق – مجلس شعبي – مجلس خيري.. الخ، وكلما سقط عدد منها ظهرت واجهات اخرى.

ثانيا: الصراع المذهبي المستتر والذي يتجلى بشكل صارخ في الموقف من التسميات 'المركبة أو الموحدة' حيث تختفي خلفه الكثير من المشكلات الداخلية الأخرى والتي لا يفصح عنها بشكل علني.

ثالثا: وجود تنظيمات كلدانية سريانية اثورية متطرفة فكريا، تمكن الطرف الخارجي من تغذيتها وتحريك خيوط بعضها بشكل او بأخر، مباشر او غير مباشر، لتحقيق الغايات التي تسعى هذه الاطراف من الوصول اليها.

رابعا: غياب الخطوات العملية الملموسة على طريق وحدة الكنائس او حتى تقاربها، وانعدام الثقة المتبادلة بين جميع هذه الكنائس 'الكلدان الكاثوليك – السريان الكاثوليك – السريان الأرثوذكس – المشرق الاشورية – الشرقية القديمة – وأخيرا الأنجيلية' مع تنامي خشية بعضها من البعض الأخر، ومن ثم انعكاس هذا الصراع المستتر على أمننا القومي من كافة النواحي السياسية والأجتماعية والثقافية.

خامسا: ما العمل؟

هذا هو واقع أمننا القومي حاليا، ولا يمكن لأي من أبناء شعبنا مهما طال الزمن أو قصر أن ينكر بأن أمننا القومي يجب ان لا يكون مستباح ومخترق، وبشكل بات يهدد وجودنا وهويتنا. والسؤال المطلوب الاجابة عنه: ما هو دور المنظمات الجماهيرية والشبابية والطلابية والجمعيات الثقافية والأجتماعية والنخب الواعية في المجتمع، فضلا عن القوى السياسية وفي طليعتهم الحركة الديمقراطية الاشورية في صد هذه الهجمة الشرسة ووقف المزيد من التدهور والخرق للنظام الأمن القومي الذي هو المصدر الأساسي والحاسم في تحديد هويتنا ووجودنا وحقوقنا المشروعة في وطننا. ولأجل تحصين وحماية أمننا القومي نحتاج الى:

اولا: الشعور بأن الأمن الخاص 'الفرد أو جماعة' لا يمكن أن ينفصل عن الأمن القومي، بل هما مكون واحد، ويجب أن يشعر الجميع به من أجل أن يضحي الجميع من أجله.

ثانياً: نحن بحاجة الى مؤتمر قومي جامع وشامل يدعو له: الحركة الديمقراطية الاشورية – المنظمة الأثورية الديمقراطية – حزب الاتحاد الديمقراطي الكلداني – حركة تجمع السريان المستقل، ولا يعقد المؤتمر في العراق أو اي بلد مجاور له دور سلبي في العملية السياسية الوطنية، بل في بلد اوربي، وعدم وضع أي شروط ملزمة على المشاركين سوى الشرط الوحيد هو أن تكون جميع الاطراف المشاركة لها الرؤية السياسية المستقلة، لا تخضع ولا ترضخ لهذا الطرف أو ذاك، وتلتزم بتنفيذ القرارات التي يتوصل اليها المؤتمرون ولها القدرة والامكانية في المساهمة في تنفيذ المقررات. وفي حالة عجز المؤتمر من تحقيق اي تقدم، فلا بد أن يتحول الى مؤتمر اوسع يشارك فيه ممثلوا كافة القوى الفاعلة في المجتمع من الشخصيات السياسية المستقلة، اكاديميين، مثقفين، اعلاميين، فنانين، ممن هم داخل الوطن أو خارجه، بل ودعوة بعض السياسيين والخبراء الدوليين المتعاطفين مع قضيتنا، والذين لهم الخبرة المتراكمة في سبل ووسائل حل المشكلات من أجل المساعدة في الوصول الى القواسم المشتركة تتفق عليها جميعا.

ثالثا: العمل على وقف نزيف الهجرة الذي بات يهدد وجودنا القومي على ارض الأجداد فلا معنى لمفهوم 'الأمن القومي' ولا معنى لكلمة 'الحقوق المشروعة' بدون الوجود القومي على الأرض. وهذا الموضوع مرتبط بالظلم التاريخي على شعبنا من المذابح والتهجير القسري وخسارته لمناطق شاسعة من موطنه واختلال الديموغرافيا لغير صالحه.

وهذه العوامل مجتمعة هي من الاركان الأساسية للأمن القومي الأستراتيجي لشعبنا، وتتطلب دراسة مفصلة ووضع الحلول والسياسات والخطوات الناجحة، وعلى جميع الاطراف الالتزام بها والعمل بموجبها.

مفهوم الحركة من القضايا الوطنية والقومية

إن فهم مجرى الأحداث وتطورها ضمن الأسس الفكرية والسياسية والأجتماعية والأخلاقية، هي التي تحدد لدى الحركة الديمقراطية الاشورية المواقف من المتطلبات والمعطيات والحاجات الجديدة، عليه ومن أجل الوصول إلى فهم في رؤية الحركة من قضايانا وحقوقنا القومية، يتطلب منا ألقاء الضوء ولو بشكل سريع على مواقف الحركة للمسائل الوطنية والقومية.

اولاً: في القضايا الوطنية.

تعتبر الحركة الديمقراطية الاشورية أول حركة قومية تربط في فكر وعقل الأنسان الكلداني السرياني الاشوري وبصورة عضوية النضال الوطني بالنضال القومي، بل وجعل النضال الوطني هو البعد الأستراتيجي للنضال القومي وجعل النضال القومي هو البعد الأستراتيجي للنضال الوطني، وجعلهما حالة واحدة، وهذا الفكر وهذه الرؤية هما اللتان ميزتا الحركة عن التيارات والحركات والأفكار التي ظهرت من قبل، والتي كانت جميعها تعاني من عيب مشترك، ألا وهي النظرة الأنعزالية بين مفهومين الوطني والقومي، بالإضافة إلى الفهم الطوباوي في معالجة الحالة السياسية والأجتماعية والثقافية عند شعبنا، لذا فأن ظهور نظرية وحدة النضالين الوطني والقومي والتي صاغها الرعيل الأول المؤسس للحركة في نضال وحيثيات العمل السياسي، هو عنصر فعال واستراتيجي في فكر وعقل الحركة – زوعا وقد تجلى ذلك في المنطلقات النظرية والتنظيمية والثقافية تحت شعار 'عراق ديمقراطي حر.. الإقرار بالوجود القومي الاشوري' وشعار 'عراق ديمقراطي حر.. ضمان لحقوقنا القومية' وأعتبار بأن شقي هذين الشعارين مترابطان جدليا، أي بمعنى لا إقرار بالوجود القومي بدون عراق ديمقراطي حر، ولا ضمان لحقوقنا القومية بدون عراق ديمقراطي حر، والعراق سوف لن يكون ديمقراطيا بدون الإقرار بوجودنا القومي ويضمن حقوقنا القومية المشروعة.

اذن، فأن الجدلية التي أوجدها فكر الحركة الديمقراطية الاشورية بين قطبي النضال الوطني والقومي، هي المقدمة الأساسية لتحديد مواقف الحركة من مجمل القضايا القومية وفي المقدمة الحقوق الأدارية والسياسية والثقافية والأجتماعية. لذا سعت الحركة الديمقراطية الاشورية منذ البداية الى المشاركة في قيام جبهة وطنية تضم كافة الأحزاب والحركات الوطنية والقومية من أجل تحقيق تطلعات الشعب العراقي في التغيير العام وصولا الى اللحظة التاريخية المتمثلة في اسقاط النظام القائم في ذلك الوقت، بأعتبار أن الحالة السياسية في العراق كانت تتطلب العمل بين كافة الأطراف سواء كانت وطنية أو قومية أو دينية أو ليبرالية، وأنطلاقا من هذه القراءة الفكرية وضعت الحركة الديمقراطية الاشورية أستراتيجيتها السياسية القائمة على ضرورة تحالفها مع القوى الوطنية والقومية العراقية ضمن أسس نضالية، لأن الحركة أدركت ومنذ البداية، أن سبب عدم نجاح انتفاضات ووثبات الشعب العراقي تعود الى: أ – انشطار في الرؤية السياسية للهدف الأساسي لتلك التنظيمات والحركات.

ب – عدم تعاون حقيقي بين الأحزاب والمؤسسات السياسية المعادية للنظام فيما بينها.

ج – عدم وجود ميثاق للعمل الوطني المشترك.

عليه نجد إن الحركة الديمقراطية الاشورية أخذت تثقف أعضاءها وتدعو أصدقاءها الى ضرورة واهمية المشاركة في إقامة الجبهة الوطنية العراقية المعارضة للنظام الدكتاتوري في بغداد، وجاءت اللحظة التي ارتكب فيها النظام المقبور عدوانه على دولة الكويت عام ١٩٩١ الذي كان له الأثر الكبير في تفعيل وتوسيع التعاون بين الأحزاب الوطنية 'ومن ضمنها الحركة – زوعا' وذلك ضمن مبدأ ونظرية الحركة الديمقراطية الاشورية الثورية التي تعتمد على الربط بين النضالين الوطني والقومي. وقد كان للحركة – زوعا مشاركات عديدة في التحالفات الوطنية، ومنها تحالفات الأحزاب الوطنية العراقية في كردستان العراق وفي لجنة العمل المشترك في دمشق والمؤتمر الوطني العام في بيروت وغيرها من النشاطات. في كل هذه المهمات النضالية كانت الحركة الديمقراطية الاشورية تمثل شعبنا وأمتنا الكلدانية السريانية الاشورية وتضع نصوص حقوقنا القومية امام جميع القوى الوطنية العراقية، لأن نيل شعبنا لحقوقه المشروعة، لا يمكن تحقيقها بأساليب انعزالية، بل بعمل سياسي مدرك ومنظم، يحظى بتأييد الشعب العراقي بكافة فصائله الوطنية، وجعل قضيتنا، مشروعا وطنيا، فضلا عن كونه مشروعا قوميا، يستوجب حله في اطار الحل الشامل للقضية العراقية.

الهوامش:

* هي في الأصل نص للمحاضرة ألقيت في مدينة ديترويت الأمريكية.

2 – الفيلسوف ارسطو ولد في مدينة ستاغيرا شمال يونان في عام ٣٨٤ ق.م. وتوفي في ٣٢٢ ق.م.

3 – القديس اوغسطين أحد أهم الشخصيات المؤثرة في المسيحية الغربية وهو فيلسوف روماني من اصول أمازيغ ولد في مدينة تغاست الجزائرية التي كانت ضمن احدى مقاطعات مملكة روما في شمال افريقيا في عام ٣٥٤ م. وتوفي في عام ٤٣٠ م.

نقاط ملونة

لقاء عند الغروب

الايام تمضي والزمن الاتي يسوق المكان الى حيث الاشياء تتجدد والناس الذين يمرون من امام عيني هم ليسوا انفسهم فالكل علي غريب لم يصادف حتى ان كان بيني وبينهم لقاء فالعين تتعرف على الاشياء رغما عنها اذ لا يمكن للمكان ان يبتعد عن المنظور ولا الرائي يمكن له ان ينوء بنفسه عن معرفة الاشياء حملتني الايام على جناحيها تسوقني الاقدار الى ما قدر لها هناك وفي خضم تلاطم الموج المتعالي مرة والهادىء مرة اخذتني من غير ان ارغب في ذلك الى الاتي من المكان فكانت اياما تعلق في الفكر الى مر الازمنة من غير ان تنسى هي الاشياء التي تجيء مع الاتي من الزمان والمكان كانت انظر الى تلاطم الامواج حيث المد والجزر وقد تسارعت بخطواتها بعض المويجات لتلتحق بالاتي لتكون حاضرا على الماضي من الزمان يذكرها والبرد الملتحف غطاء النهار قد شابه بعض الدفء حيث الشمس تعانق الريح المتكور في قطع الغيم المتناثرة في شواهق الصاعدات من الريح لم يخطر في ذهني ان ساكون قريبا في الاتي من الزمان والمكان من البحر الذي تتراكم امواجه كانها انطلاقة نحو الامل فالامل محجوب عن من يقترب بلا هدف فالغربة للاشياء متعبة...

في مغرب يوم جديد كان اللقاء بيني وبين البحر حيث صعدت الى باخرة تعلو مراسي شاطىء البحر شامخة ترسو كانها فندق عائم كان هناك سلم قد وصل بين اليابسة وبين طرف السفينة اذ لابد لك من ان تصعد هذا السلم لتصل الى المدخل في الطرف القريب من الشاطىء هناك حيث الاشياء تبدو مختلفة برغم تشابه الاشكال الا ان البحر يضفي عليها جديدا من المقاييس لتكون الاشياء على محامل عدة ما يميزها التروي في الاتي على ما يكون وهاهي الضياءات الاخيرة المتصاعدة من اطراف قرص الشمس المتزوي تحت الافق كأن الاواخر من الغسق لملمت الضياء المتبقي في زحمة الاتي من الدياجير المثقلة بالنجوم بصعصعها الليل المولج.

في يوم اخر وانا في هذا اذ اقترب مني احدهم رحب بي ودلني على مكاني وحين وصولي الى المكان تسارعت عيناي تنظر صوب الاشياء فتراها جديدة كما البحر وانت فيه اذ لايكون كما تراه فهو يختلف بالاتي من المكان كيف لا وسيكون على امتداد الاتي من الزمان حيث الاشياء ستختلف شكلا كانت السفينة كبيرة الى الحد الذي ان اردت الانتقال من الداخل الى الخارج فالمكان يعد كانك بين حي واخر ما يميز هذا المكان هو الالتزام بالوقت اذ لا يمكن ان يختلف موعد عن موعد اخر فالكل مواعيده على الضبط كانها مملكة نحل حيث لا يمكن ان تكون الاشياء غير هذا اذ ستتأثر الاشياء بمقدار الانضباط وعكسها اما ترتيب المتوالي من الاعمال فله نفس النصيب من الانضباط حيث لكل مكانه تعج السفينة بالخدمات التي لا مناص منها لتتواءم الاشياء فيما بينها لكي لا تكون الفوضى سائدة اليوم يبدا كما الايام تبدأ على اليابسة الا ان الليل والنهار تتوزع حيثياته على حسب صفة العمل المناط للبحارة فيكون يومك مريحا تعوض الخدمات المتوفرة ما يشوش بعض يومك ...

مونولوج امرأة عراقية ...... قراءة فكرية

أ.د. سيار الجميل

حارسة النخيل .. من تكون ؟

دعوني اليوم اكتب عن رواية السيدة سميّة الشيباني " حارسة النخيل "، وسأخصص حلقة اليوم للقراءة الفكرية، وسأعطيها بحلقة أخرى للقراءة النقدية .. لقد كنت قد قرأت مقالا عن هذه الرواية الرائعة، فتوقفت عند إشارات هذه السيدة العراقية التي برزت إعلامية للجحة في بعض التلفزيونات العربية الشهيرة بعد أن قدمت إليها من البصرة الفيحاء .. ولكن ، كالعادة ، حوربت بقسوة وظلم كما هو حال كل المبدعين ، حتى أخرجوها وهي متعففة عن أن تتذلل للمسؤولين من اجل أن تعود .. وكنت أتمنى عليهم أن يقرأوا كتابها الأول، أو روايتها الموسومة " حارسة النخيل " ، إن كانوا يحسنون القراءة ، ليدركوا من تكون هذه المرأة العراقية التي كتبت سيرتها الذاتية لأربعة عقود من الزمن المر .. ليدركوا ما نوع التاريخ الذي صبح على كاهلها ! ليتأملوا في طبيعة الشخصية التي تتميز بها ! ليقلقهم الأشياء والمعاني الكبيرة للثقافة التي تحملها ! لقد كتبت تقول : " أنا امرأة هاشمية ، أبي فلاح من جنوب العراق ، رحل في أواسط الأربعينيات إلى الكويت واستقر للعمل فيها ، وأمي هلالية ، نزحت أسرتها من جنوب العراق .. واستقر بها الحال في الكويت " (ص ٣٨) .

صحيح أنني عرفت سمية الشيباني معرفة قوية قبل أن أقرأ روايتها ، ولكن جاءني إهداؤها كتابها لي بعد شهور طويلة على صدوره .. ومرت شهور وأنا أقرأ فيه بين الفينة والأخرى .. ليس بسبب ضجر وملل ، بل بسبب تأملي طويلا في صورة تاريخ صعب مرّ بالعراق .. وكثيرا ما أقول، لو أتيحت الفرصة لكل عراقي وعراقية أن يكتب بصراحة ومصداقية عالية، سيرته الذاتية، وما صادفه عبر نصف قرن مضى .. لوجدنا أمامنا تاريخا عراقيا مثقلا بكل التجارب والمعاني والعذابات والصفحات المؤلمة والعلاقات المتنوعة ناهيكم عن اشراقات لا حدود لها .. إن حارسة النخيل ، واحدة من التواريخ الشخصية التي عبرت بإلحاح شديد وبصدق كبير عن مونولوج امرأة عراقية .. منذ أن بدأت تعي الحياة حتى يومنا هذا . إن رسالتها التي تضمنتها روايتها رسالة حب إلى العراقيين .. الحب الذي عرفته باختزال قائلة : " الحب لا يأتي من الصمت ، ولا يكبر في أجساد معتلة ، ولا ينشأ في بيوت معتمة ، ولا يتمدد في غرف باردة . الحب لا يستند إلى جدار بل إلى روح . فماذا لو ماتت فينا الروح .. " (ص ٦) .

صورة المرأة العراقية

سمية الشيباني تفصح في روايتها عن الحب .. للتكوين الصعب .. الأم المظلومة .. الأب الجائر زوجة الأب الظالمة .. البصرة والكويت .. النشأة ونشوة المراهقة .. المدرسة والمعلمة .. البيئة والنخلة .. اشراقات السنوات الأولى في العراق وعذابات السنين الأخيرة .. الزوج المرهف الإحساس .. الأطفال .. العلاقات الأسرية .. الإصرار .. الثقافة .. اللغة .. المواقف .. النظام السياسي .. الهروب .. الأحلام .. الحرب .. المآسي .. الأجيال .. العدم .. الخ لقد انتبهت إلى أن المرأة العراقية هنا أكثر صراحة وتحملا من الرجل العراقي !! انتبهت إلى أن المرأة العراقية مثيرة للجدل دوما إذا ما أنتجت أو أبدعت .. وستضطهد إن حملت خزينا من الجماليات ! وإن تكلمت ، فإن باستطاعتها أن تكسر جدارات الصمت الهائلة .. انتبهت وأنا أقرأ حارسة النخيل إلى أن المرأة العراقية ، قد مرت ولم تزل تمر حتى هذه اللحظة بمونولوج صامت من القهر .. أنها تتحمل أثقالا من الهموم والمعاناة والجلد وهي صابرة وتؤثر الصمت .. إنها تتحمل القسوة كونها تحب أكثر مما تكره .. وأنها تؤثر التأقلم مع البيئة التي فرضت عليها ، كونها " بنت حمولة " وإن مبادءها تسبق مصالحها .. لقد انتبهت إلى أن المجتمع العراقي إن توغل أي باحث ذكي في أعماقه ، فسوف يستكشف عوالم غاية في الغرابة .. ونسأل : لماذا يتأمر الرجل على زوجته .. على أم أولاده ويقسو عليها ؟ لماذا نجد المشاعر العراقية لا تعرف الاستقرار أبدا ، فهي بين نار ساخنة حامية ، وبين برودة كالثلج أو الصقيع ؟ لماذا كان كل ذلك الخوف والرعب من السلطة .. وما الأساليب والأدوات التي استخدمتها السلطة في قمع المجتمع ؟ ما الحرب ؟ ما دواخلها ؟ ما الذي حصل من هواجس والأم لدى ملايين العراقيين ، وهم يخوضون حروبا شديدة قاسية ؟ ما القسوة ؟ وما معانيها ؟ وماذا يقابلها من طيبة ؟ وما معاني تلك الطيبة التي عرفها الإنسان في مجتمع متلاقح له خصوبته .. " مسكين يا عراق ، كم أهلك طيبون وكم أنت حزين .. " (ص ٦٩) ، وتصرخ سمية كلبوة وهي تحتضن أطفالها بوجه الزمن ، صائحة : " أطفالي (يا وطن الغضب) بلا جدار ، بلا رصيف ، بلا ذاكرة ! امنحهم بيتا ورصيفا ومدرسة وذكريات ، لماذا أنت بخيل يا عراق الخير ؟ من علمك القسوة وحبس اليد ؟ من علمك الصراخ يا بلد الغناء ؟ من نثر عليك الرماد والحزن يا وطن الفرح والأعراس ؟ من أغواك بقتلنا يا بلد الخلود ؟ من حذف من مسلاتك قوانين حفظ الإنسان يا بلد البقاع والزرع .. " (ص ٥٢) .

جيل مبدع مخضّب بالدماء

لقد وجدت وأنا أقرأ (حارسة النخيل)، شهادة حسن سلوك لجيل عراقي كامل عاش مرحلة من أقسى المراحل ، وبقدر ما اكتسب من اشراقات القرن العشرين ، بقدر ما عانى من عذاباته وآلامه .. سمية الشيباني هنا ، تقدم في روايتها وصفا رائعا وصريحا عن سيرتها التي تمثل سيرة جيل كامل في العراق بددته الحروب ، وأشعلته الأسقام ، ونالت منه العداوات والعزلة .. وأتعبه الهروب وسحقته المنافي في الداخل والخارج ، وأبكته المخاوف والظنون .. جيل يستحق أن يكتب عنه الكثير ، لأنه دفع أثمانا باهظة من حياته وغدت حياته العراقية جحيما لا يتقبل أي جدل أو سفسطائية لمن يريد أن يغرد لوحده بحثا عن الأوهام والشعارات البليدة والأغاني الهزيلة ، والصراخات والنباحات التي جعلت من أبناء المجتمع أصناما .. لا حراك لهم ولا قوة ولا أي خصب أو إبداع .. لقد وجدت سميّة بغداد بعد سنوات القهر والهجرة غير التي عرفتها .. " كان هذا هو الفاصل بين الوهم والحقيقة ، وجه وطني الآخر ، وجه بغداد الحقيقي . في الليل وبعد غسل المساحيق ! لا تستعد بغداد للنوم ، بل تساعد لالتهام لحم أبنائها بعد أن تمتص دمهم وأحلامهم وشبابهم في النهار ، تستعد للتخلي عنهم حين يئنون وتبتلعهم الجراح ثم الموت .. " (ص ٦٨) سمية الشيباني صاغت في روايتها جملة من الأسئلة المهمة ، وهي لا تدري ، أسئلة تواجه بها كل المثقفين العراقيين الذين يبدو اليوم ، وقد غابت عنهم جملة من الأفكار الوطنية التي تربوا عليها .. إنها تسألهم عنها ! تسألهم عن وطن جميل وهم يجدونه يتمزق أمام الأعين .. إنها تثير جملة من الأسئلة التي تجادل فيها المجتمع العراقي .. وخصوصا ، المرأة وما نالته على يد الرجل .. تسأل عن الطفولة المعذبة في البيوت .. تسأل عن سر تلك التناقضات التي لا أول لها ولا آخر في طبيعة العراقيين .. ؟؟ وخصوصا ، ما حصل في النصف الثاني من القرن العشرين .. دعونا نقرأ هذا الوصف الرائع الذي كنت أتمنى أن يتضمنه السرد بعفوية ، بدل أي خطابية " هذا بلد المجد والانتصارات العظيمة ، مشاريع قبور ، والمجتمع الذي انتمي إليه حزين وفقير ليس لديه أدنى حقوق الإنسانية ، ليس لديه ما يدفئ به عظامه في هذا الشتاء القاسي ، لا ملوك ولا سلاطين ولا زيارات أو موالد ، شتاء بلا دواوين ولا شعر ولا مجالس ولا قصور ، كل الشعر لصدام ، وله كل الخرافة وبه ترفع الرؤوس المثقلة ، وكل يئن من ليله ، وإياه أن يسمع هذا الأنين ، عار على العراقي أن يتألم ، وعار على العراقي أن يئن عن وجعه (يتعب الحديد ولا يتعب العراقي !!) خرافة الوحدة العربية صارت هي صخرة سيزيف التي يحملها كل عراقي ! " (ص ٦٩) . إذا تربى جيل ١٩٧٩ على خواء التفكير .. فماذا سيكون اليوم ؟ إن الأطفال تربوا عهد ذاك على الجنون بعينه ، فكيف سيكون شباب اليوم ؟ تقول سميّة : " أطفال العراق يختلفون عن أطفال العالم .. أطفال العراق منشغلون عن اللعب والرسم ، إنهم يركضون وراء الخبز الأسمر .. أطفال العراق لا يخشون الغارات ولا القنابل ولا رؤية المدافع والجثث .. " (ص ٨٦).

مونولوج يعيد الاعتبار للذات المجروحة

إن مونولوج سمية الشيباني يعيد الاعتبار للذات العراقية المجروحة سابقا والمنتهكة حاليا .. إنها أبعد ما تكون عن التقسيمات الساذجة البليدة في مجتمع عرف التنوع منذ آلاف السنين .. صحيح أن سميّة ترتبط بالبصرة وجنوب العراق ارتباطا عضويا ، لكنها تؤمن بأن العراق لا يمكنه أن يعيش من دون جنوب ووسط وشمال .. إن حيثيات هذه المبدعة العراقية تثير في مضمونها إلى تفاصيل دقيقة عن مواقف ومشاعر وهواجس وأفعال ورغبات وآمال وطموحات .. لقد نجحت بذكاء أن تستدرج أي قارئ عراقي لها إلى أن يفكر بكل المسلسل التاريخي المرير لوطنها الجريح وهي تتعاطف معه من أعماقها .. " مسكين يا وطني ، مكتوب عليك أن تحترق في كل زمن ! مكتوب على أبنائك الموت في كل حقبة ! " (ص ٩٢-٩٣) .

وعليه ، أن يفكر في الذاكرة التي صاغتها حارسة النخيل .. وأن يفكر أيضا ، في ماهية التركيبة المعقدة والصعبة للشخصية العراقية التي لها مختلف التناقضات بين الاختلاف والتآلف ، وبين تبسيط وتعقيد ، وبين طيبة وحقد ، وبين ذكاء منقطع النظير وبين غباء كبير .. بين الحسنى وروعة الحب وبين الشر ومنتهى القسوة .. الخ لقد وجدت أمثلة ممتازة وبتصوير بارع لكل الألوان التي تشكل نفسيات العراقيين المتنوعين .. بل حتى يستكشف المرء كم يخفي بعض العراقيين ذواتهم الحقيقية ليبرزوا في المجتمع بوجوه مزيفة ومجاملة من طراز فريد .. وأعتقد أن التاريخ الصعب والجغرافية المحورية قد خلقت مثل هذه الشخصية المتنافرة وغير المنسجمة حتى مع نفسها .. إن سمية الشيباني قد نجحت في تفكيك العلاقات الداخلية ، وأظهرت لنا جميعا تلك الشخصيات المقيتة في دواخل المجتمع العراقي ، وقد عبرت تعبيرا رائعا وهي تتحدث باسم العراقيين قائلة : " الجميع يتلمس طريقه إلى طريق لا يدري لماذا هو متجه إليه ... الموت يجلس معنا في الظلام " (ص ١٠٢) .

صحيح أن الرواية سيرة ذاتية للمؤلفة ، ولكنني وجدتها راصدة لكل المتغيرات العراقية .. ومشخصة لكل ما تميز به اغلب العراقيين : الحنين .. الصبر .. الحسرة .. اللوعة .. (الحسجة : الفهم بالإشارات) الونّة ، الرنّة ، النواح .. الكلام المرهف .. ترديد مقاطع الأغنيات وحتى الصفقة والرقصة .. إنها ـ أيضا ـ تطرح لأول مرة ، مشكلة أولئك العراقيين البؤساء الذين قادهم كل من التاريخ والجغرافية ، ليكونوا مادة سهلة للاستلاب ، ليس بين مجتمعين ، بل بين دولتين ، إذ عانت سمية وأمها من مشكلة أن تكونا بين العراق والكويت .. فماذا يمكن قطعه إزاء ما حدث في كل من عامي ١٩٩٠ و ١٩٩١ وتداعياتهما حتى يومنا هذا ؟!

لقد طرحت سمية احد ابرز الموضوعات المهمة التي يعيشها عرب أضاعوا هويتهم بين العراق والكويت ، وكانوا وما زالوا يعانون من قسوة التاريخ والجغرافية .. ومنهم أمها التي تحبها حبا عارما والتي قست عليها الظروف ، وقسا عليها الزوج قسوة سجلت سمية بعض صورها اللامتناهية .. لقد كانت تداعيات غزو الكويت ١٩٩٠ على الكويتيين من أصول عراقية مفجعة ، وهم لا علاقة لهم لا بسياسة ولا بحرب ولا يدرون انهم بلا هوية !

رواية الحرب .. وتداعيات الأشباح

إن لحظات الحرب مريرة ، كالتي عاشها كل العراقيين في دواخل الوطن .. فكيف بحارسة النخيل ، وهي تصف حالة الحرب وأهوالها من خلال التجربة المرة التي عاشتها .. تخاطب الحرب صارخة بوجهها : " أيتها الحرب غادري هذا الوطن ، لماذا أنت في كل زمان تصرين على إعادة شبابك بابتلاع الشباب من هذه الأرض ؟ ما الذي يغويك فينا ؟ هل في لحمنا ميزة ؟ أيها الليل كن عونا لقلبي ودلني على النهاية . من أين لي أن أعرف ما تخفيه ، أخبرني هل ستكتب لنا الحياة ونصحو في الصباح لنشم رائحة الشاي والخبز والحياة " . (ص ١٠٢) .

إنها تستطرد مثيرة للذاكرة بمرسلات دلالية حينا ، وإيحاءات عابرة أحيانا .. وصراحة متناهية أحيانا أخرى عن الأشباح السوداء التي دمرت العراق والحروب العبثية التي استنزفت ليس ثروات العراق حسب ، بل سحقت كل العراقيين سحقا ! إن الإنسان العراقي " لا يعرف ما معنى السلام منذ طفولته ! انه من أجيال الحروب .. " (ص ١١٥) . إن حارسة النخيل تقدم شهادة تاريخية رائعة ، وبكل مصداقية وبساطة عن قصة الآلام المريرة التي عانى منها كل العراقيين في مخاض تتمثل فيه كل القسوة .. وبأيدي أولئك الذين ارتضوا أن يسوموا إخوانهم العراقيين سوء العذاب .. أو أولئك الذين ساهموا في إذكاء نار الحرب ضد العراق والعراقيين من عملاء في الداخل والخارج والإقليم وكل الدنيا الموبوءة ..

لقد قدمت سمية صورا فلسفية ذكية عن الحرب والحروب : " في الحروب تعرف معنى الجوع ، تعرف معنى الخوف الحقيقي ، تعرف معنى الموت حين يكون قريبا منك ويداعبك .. " (١٣٧) .. لقد وصلت الرواية في عقدتها عند الذروة ، بحيث يبلغ مونولوج امرأة عراقية أقصى اندفاعه وهي تشخص ما الذي كان وما الذي صار إليه العراق .. لقد اخذوا منه كل المعاني والأشياء وتركوه وأهله للعدم . دعونا نستمع إليها وهي تصيح بوجه العالم .. كل العالم : " الجثث تملأ الشوارع والملاجئ ، والبيوت التي تهدمت على رؤوس أهلها ، والبنايات سقطت في الأنهر ، الناس باتوا يشعرون بأن الخلاص في أن يأخذ العالم ما يريد من العراق . فليأخذ كائن من كان ما يشاء ويترك لنا أبناءنا وأعمارنا والأمان ! خذوا النفط وصدام والنخل والتاريخ والمتاحف ، خذوا القمح والشعير والنبيذ والعرق ، اسرقوا منا الليل والنهار والسماء والنجوم ، خذوا القانون والمسلات والأساطير والحكمة ، واتركوا لنا الفوضى ، خذوا أسماءنا وانسبوها لكم ، خذوا كل شيء واتركوا لنا الحديد ، لا بل خذوا الحديد إذا شئتم واتركوا لنا العدم ! " (ص ١٣٩).

وأخيرا : صورة مجسّمة

لقد عشنا صورا حقيقية قدمتها لنا سمية الشيباني عن أهوال الحرب ، وهلع الناس من أصوات الصواريخ .. عن العتمة التي عاشها العراقيون .. عن الخوف المزروع في أفئدة الأطفال .. عن الأشلاء الآتية من الجبهة .. عن الخوف من الجواسيس وكتبة التقارير .. عن القصف وما يحدثه من التدمير ..

عن الهروب الجماعي للعراقيين .. عن سوء المعاملة التي يلقاها كل العراقيين خارج أوطانهم .. إن سمية الشيباني قد ترجمت أحاسيس الناس بكل أمانة بدءا بأقرب الناس إليها .. زوجها الشاعر المعروف الأستاذ مؤيد الشيباني .. وانتهاء بأولئك الذين دمرتهم الحروب والآلام .. وهم يتطلعون إلى الزمن الموعود .. حيث يعود فيه العراق إلى خصبه واستقراره .. إلى حضاراته وبناء مستقبله..